القوة الحربية لمصر والشام
فى عصر الحروب الصليبية

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

— ٤ —

وتنوعت سفن الأسطول ، فكان منها الشوانى Gyaferes وهى أكبر السفن الحربية فى مصر وأكثرها استعمالا ، وكانت أهم القطع التى يتألف منها الأسطول ، وهى سفن حربية كبيرة تتخذ بها الأبراج العظيمة والقلاع ، وتزود بالعدد الحربية ، وتجهز بالأسلحة والنفطية لتستعمل فى الهجوم على الأعداء والدفاع عن نفسها إذا هاجمها العدو ، وبها اللجام وهو حديدة طويلة محدودة الرأس تقذف به سفن العدو لتخرقها . وبها أيضاً كلاليب وهى خطاطيف كبار من الحديد تطرح عليها فتوقفها (١) . ومنها الجلاسات Gyalasses مفردها جلاسة وهى نوع من السفن الحربية الكبيرة تسير بالشراع والمجاذيف وهى أثقل وأقوى من الشيني . والمسطحات وهى من أكبر سفن الأسطول . وكذلك السلنديات وهى مراكب حربية كبيرة مسطحة لحمل القاتلة والسلاح وتعادل فى أهميتها الشونة والحراقة . والبطسات وهى من أشهر أنواع السفن فى أيام الحروب الصليبية ، قد يكون لها أربعون قلعاً (١) كانوا يشحنونها وقت الحرب بالآلات والأقوات والميرة والرجال والقاتلة والأسلحة وآلات الحصار وكانت تحمل آلاف الجند ، ولها أسطح عالية ، وطبقات كل طبقة خاصة بفئة من الجيش . والغربان ولا يبعد أن يكون اسمها مأخوذاً من اسم الغراب لأن مقدمتها على شكل رأسه (٢) ، وهى تحمل النزاة وسيرها بالقلع والمجاذيف منها ما له مائة وثمانون مجذافا . والشاريات وتجر بعشرين مجذافا ، ولعلها كانت خاصة بالرؤساء ، كما يفهم من وصف عبد اللطيف البغدادى لها . والقوارب ناقمة لنزاة المسلمين وقت الحرب فى البحر ، يكون فى كل قارب أربعة أو خمسة من الرماة يعينون غربان المسلمين على قتال غربان الفرنج

(١) نظم الحكم بمصر ص ١٨٢ .

(١) النوادر لابن شداد ص ١٤٩ .

(٢) خطط المقريزى حـ ٣ ص ٣٢ — ٤٤ .

ألوانها . يبدو لنا ذلك مما يفهمه بعض المؤرخين — كابن إياس — من العبارات فى ثنايا رواياتهم التاريخية كقولهم فى سياق حادثة ما: و « كثر القيل والقال » و « أرجف الناس » و « فأشيع بين الناس » و « فضج الناس له بالدعاء » إلى نحو ذلك من العبارات . وأذكر أن ابن إياس قال فى إحدى عباراته ما مؤداه : « إن أهل القاهرة ما تطاق ألسنتهم ، ويل لامرىء تقع عيونهم منه على مذمة »

هذه العبارات وأشباهها تشعرنا بوجود ذلك الإحساس الذى أشرنا إليه ، وإن كانت ساذجة غامضة . غير أن هذا الإحساس لم تتح له حرية كافية للظهور والعمل خوفاً من المستبدين الطغاة ، ولم ينضج نضوجاً كافياً يسمو به إلى تكوين رأى عام له أثر فى سياسة الدولة وإدارتها .

على أن التاريخ يحدثنا أن الشعب كثيراً ما نهض إلى معونة حكامه فى حروبهم الخارجية ، وقدم إليهم ما طلبوا من الدواب والنفال والمال ، ولم يتأب كثيراً على الضرائب التى يفرضونها عليه ، ولكنه كان يتأبى عليها ويقاومها إذا كانت فادحة ظالمة . ومثال ذلك ما حدث فى عهد الأشرف قنصوه ، فقد فرض ضريبة جائرة ضج لها الناس وثاروا فى وجه نائب سلطنته وغيره من الأمراء ، وعرضوا لهم فى الطريق ورجموهم بالحجارة ، فأعمل المماليك فيهم السيف وقتلوا منهم وأثخنوا فيهم .

والذى نحب أن نخلص إليه — مما سبق أن نوهنا به — وهو أن هذا الشعب المصرى الكريم — على علاته — تكمن فيه روح قومية فطرية قوية سليمة تحتاج إلى مايظهرها ويحسن توجيهها ويسير بها فى الطريق السوى بما يعود بالنفع والعزة لهذا الوطن الكريم .

محمود رزق سليم
مدرس الأدب بكلية اللغة العربية

وقراقيرها[١] . والبركوشات وهي مراكب صغار .

ومنها الحراقات وهي نوع من السفن الحربية كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية ، وكان بها مرام ومنجنيقات تاق منها النيران على العدو[٢] ، وكان في مصر نوع آخر من الحراقات في النيل استخدم لحمل الأمراء ورجال الدولة في الاستعراضات البحرية والحفلات الرسمية[٣] .

والحالات وهي مراكب حربيـة تحمل الأزواد للرجال ، وآلات الحرب والحمار من الأخشاب الكبار والدبابات وأبراج الزحف وغير ذلك ، ويكون فيها غلمان الخيالة وصناع المراكب ؛ والقراقير ، ولا تقف إلا في المكان الغزير الماء لأنها سفن عظيمة تحمل الزاد والكراع والمتاع للأسطول ؛ والطرائد وهي سفن صغيرة سريعة الجرى كانت تستعمل غالباً لحمل الخيل وأكثر ما يحمل فيها أربعون فرساً .

والشيطي ووظيفته الكشف والاستطلاع .

وعني الخلفاء والسلاطين بتوفير الخشب للأسطول فكانوا يعينون له الحراج ومنها ما هو بالوجه القبلي في البهنسا وسفط والأشمونين وأسيوط وإخميم وقوص وغيرها[٣] ، والحراج أشجار من سنط لا تحصى كثرة في أرجاء المملكة ، ويأمرون بحفظها ، وألا يقطع منها إلا ما تدعو الحاجة إليه[٤] ، وأحياناً تصنع من خشب الجميز ، وهو الخشب الذي جهز به الظاهر بيبرس شوانيه بدل ما تحطم له عند قبرص[٥] ، وحيناً يستخدم له شجر الأثل والنبق والسرو ، وكثيراً ما كانت الأخشاب تجلب من بلدان أوربا الجنوبية على أيدي البنادقة[٦] .

وكان لصناعة الأسطول ثلاثة أماكن بمصر هي جزيرة الروضة ودمياط والإسكندرية[١] ، وموانيه التي كان يرابط بها هي دمياط والإسكندرية وعيذاب على شاطئ البحر الأحمر[٢] ، وعسقلان وعكا وصور وغيرها من سواحل الشام قبل أن يغلب الفرنج عليها[٣] .

والظاهر أن جند الأسطول في العصر الفاطمي كان مكوناً من المغاربة لمعرفتهم بصناعة البحر[٤] ، وفي عهد صلاح الدين استخدم جنوداً مغربية كذلك وجنداً من المصريين الأتوياء الأشداء[٥] ، وظل المصريون هم المورد الأساسي للأسطول حتى بعد انتقال السلطان إلى المماليك ، فإنا نجد بيبرس يجهز أسطولا لغزو قبرص ، فيه الرئيس ناصر الدين عمر بن منصور رئيس مصر ، وشهاب الدين محمد بن إبراهيم بن عبد السلام رئيس الإسكندرية ، وشرف الدين علوي بن أبي المجد بن علوي السقلاني رئيس دمياط ، وجمال الدين مكي بن حسون مقدماً على الجميع[٦] ، فلما جاء خليل بن قلاوون رتب بالأسطول عدة من المماليك السلطانية وأليسهم السلاح[٧] وإن كان الجند المصري له الغلبة أيضاً ، وكذلك جند المماليك في الأسطول في عهد الناصر محمد بن قلاوون[٨] .

وكانت التعبئة البحرية تشبه أختها البرية أحياناً ، فقد يصنع أمير البحر من سفنه قلباً وجناحين ومقدمة وساقة وقد يصنع مراكبه على شكل نصف دائرة حتى إذا حاول العدو الاقتراب منها أحاطت به ، وقد يقابل أمير البحر عدوه بمراكبه صفوفاً مستقيمة فتقطع مراكبه مراكب العدو بالنجام قريباً من مؤخرها لتغرقها ، أو يشغل أمير البحر مراكب خصمه ببعض المراكب ثم ينقض عليه مرة واحدة من ورائه وهكذا[٩] .

(يتبع)

أحمد أحمد بدوي
مدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

(١) تاريخ المماليك البحرية لحسن إبراهيم حسن .
(٢) عيط المحيط .
(٣) كما يفهم من كلام المقريزي حـ ٣ ص ٣١٥ .
(٣م) نظم الحكم بمصر ص ١٨١ .
(٤) خطط المقريزي حـ ٣ ص ٣١٥ .
(٥) المرجع السابق ص ٣٠٠ .
(٦) نظم الحكم بمصر ص ١٨١ .
(٧) خطط المقريزي حـ ٣ ص ٢٨٩ و ٣١٥ .

(١) ابن بول ص ١٠٥ .
(٢) صبح الأعشى حـ ٣ ص ٥١٩ .
(٣) خطط المقريزي حـ ص .
(٤) الحروب الصليبية للجزري ص ١٨٧ .
(٥) النجوم الزاهرة حـ ٧ ص ١٥٤ .
(٦) خطط المقريزي حـ ٣ ص ٣١٦ .
(٧) المرجع السابق ص ٣١٧ .
(٨) نظم الحكم بمصر ص ١٨٤ .
(٩) نظم الحكم بمصر ص ١٨٤ .